

مجلة الهلال

يوليو 2002

تنظيم الضباط الأحرار فى مذكرات رجال الثورة

بقلم : د. رعوفا عباس

المذكرات التى ينشرها بعض من يشاركون فى صنع الأحداث فى بلادهم، مصدرا مهما لدراسة ذلك الحدث، أو تلك الحقبة التى لعب فيها صاحب المذكرات دورا فى الحياة السياسية لبلاده، غير أن المذكرات لا تتساوى مع بعضها البعض من حيث الأهمية التاريخية، فالحرص على تدوين مذكرات عن الأعمال التى شارك السياسى فى صنعها يتطلب وعيا عميقا بالتاريخ، وحرص صاحب التجربة على أن يوصل صوته لمن يعينهم أمر التاريخ للمرحلة، بقدر ما يحرص على أن تبدو صورته أمام الرأى العام على النحو الذى يريد. وغالبا ما تكون المذكرات التى يعتمد صاحبها فى كتابتها على يوميات يسجل فيها الأحداث من زاوية رؤيته لها أولا بأول أكثر قيمة من غيرها، ونادرا ما يقع فيها خلط فى الأحداث والوقائع، على عكس المذكرات التى يكتبها صاحبها بعد تقاعده من العمل العام معتمدا على ذاكرة أو هنها الزمن، وهى التى نعتبرها، ذكريات لا يعول عليها كثيرا كمصدر للتاريخ.

ورغم نضج وعمق الوعى بالتاريخ عند جمال عبد الناصر، لم يحاول - فيما نعلم- أن يسجل يومياته التى كانت تقدم إضافة مهمة لمصادر دراسة ثورة يوليو، تسد الفراغ الكبير الذى تركه موته المفاجئ دون أن تتاح له فرصة كتابة المذكرات الخاصة به، أو إملائها على من يتولى صياغتها، ولعل ذلك يرجع إلى غلبة شخصية قائد التنظيم السرى على التكوين النفسى لعبد الناصر إذا صح ما قيل من تفضيله الأوامر الشفهية أو التوقيعات (التأشيريات) على ما يعرض عليه من أوراق، وألا يعرف معاونوه عما يسنده إليهم من موضوعات إلا ما يريدون أن يعرفوه، بحيث تظل الخيوط كلها مجمعة بين يديه.

وهناك أربعة -على الأقل- من رجال الثورة كان لديهم وعى متميز بالتاريخ، وحرص بالغ على تدوين مذكراتهم، ويأتى أنور السادات فى مقدمتهم، فقد كان أسبق زملائه إلى نشر مذكراته عن الكفاح الوطنى فى ما قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها والسنوات الأولى للثورة، وهى المذكرات التى نشرها كتاب الهلال فى يوليو 1957 بعنوان "أسرار الثورة المصرية" والذى ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية تحت عنوان "ثورة على ضفاف النيل".

ثم عاد أنور السادات إلى كتابة مذكراته مرة أخرى -في السنوات الأخيرة- من حكمه وعمره (معا) الذي حمل عنوان "البحث عن الذات" والذي حرص فيه أن يرسم لنفسه صورة براقية اقتضت صياغة المعلومات التي سبق له ذكرها في أسرار الثورة المصرية لتتفق مع ما يريد توصيله إلى القارئ. فبعد أن كانت علاقته بعبد الناصر بعد التخرج من المدرسة الحربية (1938) في منقباد تقوم على مشاركة مجموعة من الضباط الشباب الهم الوطني في أحاديث المساء داخل المعسكر، نجده ينسب تأسيس تنظيم الضباط الأحرار إلى هذا التاريخ، ويوحى للقارئ أنه مؤسسة، وأنه أوكل الأمر إلى جمال عبد الناصر عندما اعتقل في قضية الجاسوس الألماني أثناء الحرب (على نحو ما جاء في البحث عن الذات).

ومن أولئك الثوار الأربعة -أيضا- عبد اللطيف البغدادي الذي بدأ يكتب يومياته منذ أزمة مارس 1954 حتى يترك للأجيال قضية النضال الوطني والثورة التي كان من أبرز من شاركوا في صنعها، ولكنه لم ينشر مذكراته التي اعتمد في كتابتها على يومياته إلا عام 1977.

وقد أثار نشر هذه المذكرات ثائرة أنور السادات لأن دوره فيها يغير الصورة التي يريد أن يرسخها في أذهان الرأي العام، إلى حد تحركه "لتنظيم" الكتابة عن تاريخ الثورة فشكل لجنة تسجيل تاريخ الثورة، لهذا الغرض وأصدر قانونا يحرم نشر الوثائق التاريخية قبل مرور خمسين عاما دون الحصول على إذن مسبق. ولم يلق الضوء على مذكرات البغدادي في وسائل الإعلام، ولم ينشر - فيما أذكر - إعلان عنها بلصحف سوى مرة واحدة، ومع ذلك تعد مذكرات البغدادي مصدرا مهما لدراسة تاريخ الثورة.

والثائر الثالث الذي ترك مذكرات عن دوره في الثورة هو محمد نجيب الذي نشر كتابه "كلمتي للتاريخ" في بيروت عام 1957، وصدرت في نفس الوقت ترجمة له بالإنجليزية بعنوان "مصير مصر" وقد كتبها بعد إزاحته من السلطة أثناء وجوده في البيت الذي حددت فيه إقامته، ونجح في تهريبها إلى الخارج ومنع تداول الكتاب في مصر بطبعته العربية والإنجليزية، وأخيرا أعيد طبعه في مصر (عام 1981)، أما كتابه الآخر "كنت رئيسا لمصر، مذكرات محمد نجيب" الذي نشر عام 1984، فقد كتبه أحد الصحفيين مستخدما معلومات كلمتي للتاريخ إضافة إلى أحاديث أو قل إن شئت درشات أجراها مع محمد نجيب في ظروف كان الزمن قد فعل فعله بذاكرة الرجل وزاد من حدة تأثيرها مدة الاعتقال الطويلة التي سلبته الحرية الشخصية، وأثرت على تقييمه للأمر.

أما الثائر الرابع الذي حرص على تسجيل يومياته عن الظرف التاريخي لقيام الثورة، ونشر مذكراته عنها في كتاب الهلال أيضا فهو "جمال حماد" صاحب "22 يوليو أطول يوم في تاريخ مصر" (أبريل 1983) الذي لا يكتفى فيه بشهادته، ولكنه يعرض ويمحص شهادات الآخرين ويحلل شخصياتهم، ومن ثم أصبح كتابه مرجعا أساسيا عن تلك اللحظة التاريخية الفريدة في تاريخ مصر.

وفيما عدا ثروت عكاشة الذي نشر مذكرات مهمة عن دوره في ثورة يوليو غلب عليها دوره في تاطير وتنمية العمل الثقافي وتضمنت شهادته السياسية، ونشرت في مجلدين بعنوان "مذاكرتي في السياسة والثقافة" 1987، فيما عدا هذا العمل الذي صاغه صاحبه بقلمه الرشيق، جاءت معظم المذكرات التي نشرها جمع كبير (نسبيا) من رجال الثورة مجرد ذكريات أملوها في شيخوختهم على من صاغها وأخرجها في كتاب يظهر اسمه في بعضها، ويتوارى في معظمها ولكنها عندما تنشر تحمل اسم صاحبها.

من ذلك مذكرات كمال رفعت التي أعدها مصطفى طيبة ونشرت بعنوان "حرب التحرير الوطنية" (1968) وهي تتضمن تسجيلا لأعمال الكفاح المسلح في منطقة القناة، كما تضم نصوصا لبعض بيانات ومنشورات التنظيمات السرية وخاصة منشورات الضباط الأحرار من ذلك أيضا مذكرات عبد المنعم عبد الرؤوف التي صاغها (بعد وفاة صاحبها) أحمد عيد.

ونشرت بعنوان "أرغمت فاروق على التنازل عن العرش" (1988)، ومذكرات حسين حمودة التي نشرت بعنوان "أسرار حركة الضباط الأحرار والأخوان المسلمين" (1985)، وقد حرص كل من عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين حمودة على نسبة الثورة للضباط الأخوان، مما يعنى أن عبد الناصر "أستولى" على التنظيم من الأخوان، وفتح للضباط غير الملتزمين دينيا، فحاق بالثورة غضب الله، فكانت هزيمة 1967 (!!)، فقد بدأ عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين نشاطهم السياسى فى رحاب الأخوان المسلمين، بل وأقسهم بعضهم يمين الولاء والبيعة للمرشد العام حسن البنا ومن هنا يرى عبد الرؤوف وحمودة أن ترك تنظيم الضباط الأخوان كان ردة، بل وسلبا لدور الأخوان المسلمين وعدم التزام بالشرعية (!!).

ولا نجد مما نشر من كتب تضمنت مذكرات أو أوراق خاصة ما يحاول التقليل من شأن دور عبد الناصر فى الثورة (على نحو ما فعل السادات فى البحث عن الذات) سوى تلك المجموعة من الأوراق التى أعدها أربعة من رجال الثورة بسلاح الفرسان (مصطفى نصير - عبد الحميد كفاى - سعد عبد الحفيظ - جمال منصور) التى قاموا بجمعها تلبية لطلب لجنة تسجيل تاريخ الثورة وأرفقوا بها مذكرة عن دور تنظيم ضباط الفرسان فى ثورة يوليو.

وقد طرق جمال منصور بعض الأبواب من أجل نشرها، ومن بينها باب عبد العظيم رمضان الذى سارع بنشرها ضمن سلسلة تاريخ المصريين (1997)، بعنوان "ثورة يوليو والحقيقة الغائبة" وقدم الكتاب بمقدمة قصيرة أبدى فيها سعادته باكتشاف الحقيقة الغائبة وهى أن هؤلاء الضباط الأربعة هم مؤسسو تنظيم الضباط الأحرار.

وأن انضمام أصحاب الرتب الأكبر (جمال عبد الناصر ورفاقه) إليهم عام 1949، جعل حقيقة كونهم أصحاب الثورة تصبح غائبة فلزم التصويب خدمة لتاريخ مصر (على حد قولهم وقول صاحب السلسلة التي نشر فيها الكتاب).

شهادة يوسف صديق

كذلك نشر بنفس السلسلة (1998) كتاب يضم بعض أوراق يوسف صديق، تضمن شهادة يوسف صديق أمام لجنة تسجيل تاريخ الثورة التي قدمها كتابة ومعها بعض الأوراق وتتصل جميعا بدوره البارز في الاستيلاء على قيادة القوات المسلحة ليلة 23 يوليو 1952 الذي يعزى إليه ما حققته الثورة من نجاح في توجيه ضربتها الأولى للنظام فاق كل التوقعات ثم اختلافه مع مجلس قيادة الثورة حول قضية الديمقراطية.

وقد نشر أربعة آخرون من رجال الثورة ذكرياتهم عن أدوارهم في الثورة تحت عناوين مختلفة، ويأتي في مقدمة هؤلاء خالد محيي الدين، الذي اختار لذكرياته عنوان ".. والآن أتكلم" (1992)، ثم حلمي السعيد، صاحب "شهادتي للأجيال"، وأحمد طعيمة صاحب "شاهد حق"، وقد نشر الكتابان الأخيران (عام 1999)، وأخيرا ذكريات عبد المحسن أبو النور التي حملت عنوان "الحقيقة عن ثورة يوليو" (2001).

وقد اعتمدت هذه الكتب على ما جاءت به ذاكرة أصحابها وعلى كتابات من سبقهم من زملائهم في نشر مذكراته، وقليلًا ما استخدم بعضهم بعض ما لديه من أوراق خاصة أو نشر صورًا منها، ولكن حرص جميعهم على تزويد كتبهم ببعض الصور التي تسجل شبابهم الباكر، وجوانب من الأدوار التي لعبوها في السلطة في عهد الثورة.

وإذا كانت هذه المذكرات التي ضمها (15) كتابًا قد سجلت رؤية أولئك الرجال الذين ساهموا في صنع ثورة يوليو وشاركوا في مسيرتها، فقد تفاوتت -أحيانًا- رؤية بعضهم للتنظيم الذي خطط ونفذ الثورة وحدد مسيرتها، ونعني بذلك "تنظيم الضباط الأحرار"، وهذا ضد الاختلاف في الرؤية أما لأسباب سياسية نتجت عن طبيعة تكوين التنظيم من ضباط ذوي اتجاهات سياسية مختلفة، يجمعهم العمل الوطني والرغبة في تفويض أركان النظام السياسي القائم، وما ترتب على هذا التباين في التوجهات السياسية من خلاف مع مجلس قيادة الثورة حول السياسة التي تم إتباعها بعد الاستيلاء على السلطة.

القضاء على الفساد السياسي

ويفهم من مجمل تلك المذكرات، ومن غيرها من المصادر المتاحة أن الجيش المصري أصبح يموج بالحركات السياسية التي انضم إليها الضباط الشبان، والتي كانت تهدف إلى تخليص البلاد من الوجود البريطاني وتحقيق الاستقلال الوطني.

واتسعت أفاق بعضهم لتشمل القضاء على الفساد السياسى وإقامة نظام ديمقراطى وتحقيق العدالة الاجتماعية وأملت طبيعة الجيش على أولئك الضباط صيغة التنظيم السرى، وكان الرباط الذى يجمع أعضاء التنظيم الواحد هو الصداقة والشعور الوطنى، والرغبة فى تحقيق الاستقلال، وعلى حين رأى بعضهم فى القيام بعمليات محدودة ضد المعسكرات البريطانية والجنود الإنجليز تتضمن التخريب للمنشآت وقتل الأفراد، رأى بعضهم الآخر أن يمتد نشاطهم إلى اغتيال عملاء الإنجليز من الساسة المصريين، أما أولئك الذين التمسوا حلا أشمل للمسألة المصرية، يجعل مصر تتبوأ مكانتها اللائقة بها ويحقق مستوى معيشة أفضل للمصريين، فراحوا يطرقون أبواب التنظيمات السياسية المدنية مثل : "الأخوان المسلمين" و"المنظمات الماركسية" و"حزب مصر الفتاة". وعلى حين استقر بعضهم فى واحد من تلك التنظيمات، مر بعضهم الآخر عليها جميعا ثم رأى أن طريق الخلاص لمصر من قيودها وواقعها لا يمر عبر تلك التنظيمات.

وكانت المجموعة التى شكلت تنظيم الضباط الأحرار فى أواخر عام 1949، وفى سبتمبر من ذلك العام (حسب رواية جمال حماد) وكونت اللجنة التأسيسية بقيادة جمال عبد النصر، وعضوية ثمانية من الضباط هم : عبد المنعم عبد الرؤوف، عبد الحكيم عامر، خالد محيى الدين، كمال الدين حسين، حسن إبراهيم، عبد اللطيف البغدادى، صلاح سالم، جمال سالم، وتم ضم أنور السادات فيما بعد (أواخر 1951 أو مطلع 1952)، بناء على طلب عبد الناصر لصلاته ببيوسف رشاد والحرس الحديدى وبضباط المخابرات فى السفارة البريطانية (على حد قول عبد الناصر لخالد محيى الدين) فكان ضمه يفيد التنظيم فى التعامل مع الجهتين عند الحاجة لذلك.

وبدأ التنظيم يتصل بالتنظيمات الأخرى القائمة بالجيش لضم من يتوسمون فيه الرغبة فى العمل معهم من الضباط، فتم ضم الضباط الأخوان كأفراد، وكذلك بعض أعضاء قسم الأحذية (الجيش) بتنظيم حدتو الماركسى كأفراد أيضا، لأن عبد الناصر كان حريصا على استقلال التنظيم وعدم وقوعه تحت سيطرة تنظيم سياسى معين، لذلك عندما تحدث خالد محيى الدين مع جمال منصور حول انضمام تنظيم ضباط الفرسان إلى الضباط الأحرار اشترط عبد الناصر أن ينضم أعضاء التنظيم كأفراد أيضا.

وقد بدأ استخدام عبارة الضباط الأحرار فى أول منشور يصدر عن التنظيم فى فبراير 1950 على نحو ما يذكر كل من أحمد حمروش (قصة ثورة يوليو)، وخالد محيى الدين، وجمال حماد، ولكن عبد المنعم عبد الرؤوف يزعم أن تنظيم الأخوان كان يستخدم الضباط الأحرار على منشوراته بدلا من الأخوان الضباط منذ الأربعينات، وأن صاحب الفكرة هو الصاغ محمود لبيب وكيل الأخوان، وذلك بهدف تضليل الأمن. ويحدد جمال منصور وزملاؤه الثلاثة، بداية تأسيس التنظيم عام 1945، ويزعمون أنهم هم أصحاب تسميته الضباط الأحرار، وأنهم بدعوا استخدامها عام 1950 (أى بعد عام من انضمامهم فرادى

إلى التنظيم) وأن تنظيم الفرسان (الذين أسسوه عام 1945) كان يضم سبعين ضابطاً، من بينهم خالد محيي الدين، وأنهم أصحاب المبادئ الستة الشهيرة التي أخذها عنهم تنظيم الضباط الأحرار.

الأخوان والعمل السرى

أما الأخوان الضباط فيعززون لأنفسهم فضل تأسيس العمل السرى فى الجيش، فيعتبر عبد المنعم عبد الرؤوف بداية تأسيس تنظيم الأخوان الضباط عام 1942 بداية للعمل السرى بالجيش وان كان يعترف أن عدد أفراد التنظيم بلغ سبعة ضباط عام 1944، وظل العدد ثابتاً حتى عام 1946 عندما قاموا بطقوس القسم والبيعة، وكان من هؤلاء السبعة جمال عبد الناصر وخالد محيي الدين وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين، وقد تركوا تنظيم الأخوان عام 1947 لأن عبد الناصر كان يرى أن الأخوان لا يعلنون صراحةً منهجاً سياسياً محدداً فيما يتعلق بالقضية الوطنية والإصلاح الاجتماعى، ويشعر أن هدفهم هو السيطرة على تنظيم الضباط لتنفيذ أغراض الجماعة وحدها فنفر هو وزملاؤه منهم.

وحتى بعد تشكيل التنظيم الخاص بهم (الضباط الأحرار) عام 1949، ظلوا ينظرون بعين الشك إلى نشاط عبد المنعم عبد الرؤوف الذى استمرت علاقته التنظيمية بالإخوان مما أدى إلى تجميد عضويته بالتنظيم قبل قيام الثورة بثلاثة شهور، رغم استمرار علاقات المودة بينه وبين عبد الناصر وقيادات الأخوان المسلمين الذين أبلغهم عبد الناصر بنفسه بموعد قيام الثورة قبل تحرك القوات المشاركة فى انقلاب بثلاثة أيام.

والحق أن تنظيمات الضباط فى الجيش تعود إلى أوائل 1940 عندما تأسست أول خلية ثورية بسلاح الطيران ضمت عبد اللطيف البغدادى وحسن عزت وغيرهما من الضباط، وضموا إليهم أنور السادات فيما بعد بتركية من حسن عزت، وقد تزامنت التنظيمات مع بعضها البعض دون اتصال بينها حتى استطاع جمال عبد الناصر أن يكون منها جبهة واحدة عام 1949 كانت بمثابة التنظيم البديل والموحد، وساعد ذلك على نمو التنظيم بشكل عنقودى بحيث يتولى كل عضو تجنيد أربعة آخرين لتكوين خلية برئاسته بشرط ألا يعرفوا عن التنظيم سواه، إذ كان الأمن يأتى فى مقدمة اهتمام اللجنة التأسيسية بقيادة جمال عبد الناصر حتى لا يؤدي إهمال ذلك إلى تعرض التنظيم للخطر قبل أن يحقق أهدافه الوطنية.

وظل جمال عبد الناصر وحده يجمع كل خيوط التنظيم بين يديه، ولعل ذلك يفسر ما يرد كثيراً فى مذكرات رجال الثورة سألقة الذكر فى أكثر من موضع أن صاحب المذكرات تحدث مع أحد زملائه الضباط حول الأوضاع السياسية للبلاد، ثم يعرف - فيما بعد- أن زميله عضو مثله فى تنظيم الضباط الأحرار بل من المفارقات الطريفة أن هذا الاكتشاف لرفاق التنظيم من زملاء السلاح تم ليلة الثورة عندما وزعت قيادة التنظيم التكاليفات على الضباط.

ان مذكرات الضباط الأحرار تقدم مصدرا لا غنى عنه يدعم غيره من المصادر الضرورية لدراسة تاريخ الثورة، وتعدد المذكرات يساعد على تحقيق الشهادات المختلفة التي ترد بهذه المذكرات، واستخلاص النتائج منها، ورغم اعتراضنا على مبدأ قيام هيئة حكومية بالإنفراد بكتابة التاريخ، ومن ثم إجماعنا عن التعاون مع لجنة تسجيل تاريخ الثورة، فإن الفضل يعود إلى هذه اللجنة في حث الكثير من الضباط الأحرار على كتابة مذكراتهم أو الإدلاء بشهاداتهم عن أدوارهم في مسيرة الثورة، وقد قامت اللجنة بتجميع كم هائل من الأوراق الخاصة من أيدي هؤلاء وغيرهم ممن لعبوا دورا في الحياة السياسية قبل الثورة وفي عهدها. وكان المكان الطبيعي لهذه الأوراق والمذكرات هو دار الوثائق القومية، ولكن بعد انتهاء عمل لجنة تسجيل تاريخ الثورة لا نعرف أين استقرت تلك الأوراق التي يتعذر كتابة تاريخ دقيق لثورة يوليو دون الرجوع إليها، ونأمل أن تعود يوما من تغريبها إلى مكانها الطبيعي دار الوثائق القومية، ولعل الاحتفال بالعيد الذهبي للثورة فرصة مناسبة لتحقيق ذلك.